المقتطف

الجزء الثاني من المجلد التاسع والعشرين

١ فبراير (شباط) سنة ١٩٠٤ — الموافق ١٤ ذي القعدة سنة ١٣٢١

سبنسر وفلسفته

تمهيد

اقل ما ينتظره منا قراء المقتطف ان نفي سبنسر حقهُ من الوصف وفلسفتهُ حقها من التبيين لاسيما وان اكثر الذين كتبوا في المواضيع الفلسفية والاجتماعية والطبيعية منذ اربعين عاماً الى الآن كانت كتب سبنسر مرشداً لهم او للذين ارتشدوا بهم . ولا يبعد اننا كنا نحذو حذوهم مراراً كثيرة اما باعتمادنا على ما رسخ في ذهننا من مطالعة كتب سبنسر او على كتّاب نقلوا عنهُ او حذوا حذوهُ فلهُ على المقتطف فضل لا ينكر . ولم نتصدَّ قبل الآن لكتابة شيء مسهب عن فلسفتهِ بنوع خاص لان الخوض فيها عسير وتصفُّح كتبهِ بالامعان ليس مما يرتاح اليهِ كثير الاشغال لوعورة مسالكها وصعوبة اسلوبها . الاَّ اننا عثرنا في هذه الايام على كتاب مختصر لاحد مريديهِ[1] وصفهُ فيهِ وصفاً دقيقاً ولخَّص فلسفتهُ تلخيصاً وافياً بالمراد . فاتخذناهُ دليلنا في كتابة الفصول التالية وقد بسطناها بسطاً يقربها من اذهان جمهور القراء الذين لم يألفوا المباحث الفلسفية

حال العلم والفلسفة حينما قام سبنسر

كانت اوربا جارية مجرى بلاد الشرق في هذه الايام من حيث العقائد والعادات وكان العقل مقيداً بقيود التقليد اذا حاول فكها رُشق بالكفر والحرمان فنهض رجال الثورة الفرنسوية وكسروا تلك القيود وهدموا مباني الفلسفة القديمة والعقائد التي تملكت النفوس قروناً كثيرة فسدَّت انقاض ما هدموهُ سبل العقول وكادت تعيد الناس الى الهمجية لولا ان العلماء

(١) هو المستر مكنزمن مؤلف كتاب كارليل وادم سمث

الذين هدموا حاولوا البنيان ايضاً فان فولتير وديدرو واضرابهما اهتموا باكتشاف حقيقة الانسان وما تأول اليهِ حالهُ بعد الموت حتى يضعوا لهُ قواعد وفرائض بدل الاحكام الدينية التي نقضوها. الاَّ ان معارف الناس كانت قليلة جدًّا حينئذٍ لا تكفي لتكون اساساً لما ارادوا بنيانهُ . وكل علم لا يبنى على اساس وطيد لا يثبت . وزد على ذلك ان العقائد القديمة كانت راسخة في النفوس حتى ان اولئك العلماء ادمجوها في ما ارادوا ان يجعلوهُ مستقلاً عنها . ومع ذلك لهم فضل لا ينكر في انهم نقضوا كثيرًا من الاوهام والخرافات وعتقوا العقل من قيود الاستعباد ومهدوا السبيل للذين جاؤوا بعدهم وشأنهم شان من يهدم بناء قديمًا و يزيل انقاضهُ من الارض ويهيئها لبناء جديد يبنى مكانهُ

وقد قام هذا البناء الجديد وُضع اساسهُ في منتصف القرن التاسع عشر وهو الاكتشاف العظيم الذي اوضحهُ سبنسر وداروين وجاراها وولس وهيكل ألاَ وهو ناموس النشوء ناموس تولد الموجودات بعضها من بعض جريًا على سنة ثابتة لا تتغير. الناموس الشامل لكل شيء حيًّا كان او غير حي ولكل رأي وعقيدة ومذهب ونظام ولغة وعمل وصناعة . بل كلُّ انسان مهما كانت طبقتهُ ناشئ جسدًا وعقلاً حسب ناموس النشوء ولو اجتمعت القوى التي ولّدتهُ والمواد التي تولّد منها في مكان مثل مكانهِ لولّدت انسانًا آخر مثلهُ . هذا هو الناموس الذي لسبنسر اليد الطولى في ايضاحهِ واقامة الادلة على تأييدهِ وتطبيق احوال الناس عليهِ وهو اساس فلسفتهِ كما سيجيء

ولد سبنسر في السابع والعشرين من شهر ابريل سنة ١٨٢٠ وكان ابوهُ معلمًا وقد عرف بالاختبار ان شحن المعارف في عقول الصغار ليس منهُ كبير فائدة فلم يهتم بتعليمهِ صغيرًا ففاتتهُ المعارف التي تقتضي حفظًا وعرفًا لكنهُ برع في ما يستدعي استعمال العقل وما يدعو الى درس الطبيعة كجمع الحشرات وتربية الفراش والديدان . وكان لابيهِ واعمامهِ نظر في المسائل الدينية والسياسية والاجتماعية فكانوا يتذاكرون فيها امامهُ غير مقيدين بقيود التقليد . ثم ان والديهِ كانا على مذهب واحد ديني وهو مذهب المتودست(٢) فمال ابوهُ الى مذهب آخر واعتنقهُ وبقيت امهُ على مذهبها ولا بدَّ من ان يكون قد سمعها يتناظران في افضلية كلٍ من المذهبين على الآخر ورآها يتساهلان فيهما لانهُ كان يتبع اباهُ في صباح الاحد الى كنيستهِ وامهُ في مسائهِ الى كنيستها وهما راضيان بذلك . ونزوع ابيهِ عن مذهب وُلد فيهِ الى مذهب آخر اضعف سلطة المذاهب الدينية من نفسهِ فشبَّ غير مقيَّد بقيودها ولا يدرك ما يشعر بهِ غيرهُ من الذين ربوا تحت سلطتها

(٢) فرقة من البروتستانت منتشرة في انكلترا واميركا

ولما بلغ الثالثة عشرة من العمر ائتُمن عمهُ على تعليمهِ وكان قسًّا من قسوس الديانة ومن حزب الاحرار المتطرفين المهيجين على الحكومة المتذمرين للشعب عليها وكان من تلامذة كمبردج ومن انبغهم فجعل سبنسر يتعلم منهُ وكان ضعيف الذاكرة ينفر من الدروس القانونية ويكره درس اللغات واذا حفظ منها شيئًا اليوم نسيهُ في الغد اما الدروس التي تقتضي استعمال قوة الادراك والحكم والقياس فبرع فيها وفاق اقرانهُ في الرياضيات وعلم الآلات وشغف بالمبادىء العلمية ومحبة البحث والتحليل

وكان عمهُ يود ان يُعِدَّهُ للدرس في مدرسة كمبردج الجامعة فلما رأى منهُ ذلك عدل عن عزمهِ وتركهُ يجري في الدرس حسب هواهُ فخسر بذلك نصرة ابناء المدارس لهُ وكسب عداءهم لانهُ لو ربي في مدرسة من مدارسهم الكبرى لانتصر لهُ ابناؤُها وشاعت آراؤُهُ باسرع مما شاعت . ولكنهُ لو فعل ذلك لالفَ الطريقة المدرسية على الراجح ولم يتحرَّر من كل قيود التقليد

ولما شبَّ ولم يكن قد تعلم حرفة ولا استعدَّ لتعلم حرفة سعى ابوهُ لهُ فجُعل مساعدًا لمعلم مدرسة وكان اهلاً للنجاح في حرفة التعليم لانهُ كان مقتدرًا على ايضاح المعاني وتبيين المقاصد على اسلوب قريب المأخذ . هذا في الكلام اما في الكتابة فاسلوبهُ دقيق ولا يسهل ادراكهُ الاَّ على من مارسهُ . ولكنهُ لم يبقَ في حرفة التعليم طويلاً بل عُرِض عليهِ ان يكون مهندسًا لفرع من سكة الحديد التي بين لندن وبرمنهام فاقام ثماني سنوات مهندسًا واهتمَّ بعلم الهندسة وكتب مقالات كثيرة فيهِ نشرها في جرنال الهندسة المدنية . واستنبط آلة تقاس بها سرعة القاطرات . ثم ضعفت شركات سكك الحديد فقلَّ الطلب على المهندسين فخرج من منصبهِ وعمرهُ ٢٦ سنة وعاد الى بيتهِ ولا عمل لهُ ولكن كان عقلهُ قد تخطى حدود الهندسة الى علم سياسة البلدان فانشأَ مقالات شتَّى موضوعها ماهية الحكومة ونسبتها الى الامة . واكثر من الدرس والبحث ولكن الدرس لا يشبع الجوف فرأَى ان لا بدَّ لهُ من ان يتعاطى عملاً يكتسب بهِ ما يقوم بمعيشتهِ فالتفت الى الصحافة ودُعي ليكون محررًا ثانيًا في جريدة الايكونومست (المقتصد) وكان ذلك سنة ١٨٤٨ فانتقل الى مدينة لندن وبقي في تحريرها الى سنة ١٨٥٣

وكان قد قرأَ كتاب ليَل الجيولوجي في مبادىء الجيولوجيا وعمرهُ عشرون سنة وسلَّم بما علَّم بهِ ذلك المعلم الكبير وهو ان الموجودات الارضية نشأَت بعضها من بعض ولم يخلق كل نوع منها على حدتهِ لكنهُ لم يكن يفهم كيف حدث هذا النشوءُ ولا ما هي حقيقتهُ

وكان العلم الطبيعي قد سلَّمَ الناس مقاليد بعض القوى الطبيعية وسهَّل لهم اسباب الغنى

نخضعوا لصولتهِ واضطرّ علماء الدين ان يكفّوا عن مقاومتهِ بل صار المطلب المبتغى يسعى اليهِ الجميع ليستنيروا بنبراسهِ ويستعينوا بمكتشفاتهِ . وأُنشئ مجمع ترقية العلوم البريطاني فصار كعبة العلماء يحجون اليها كل عام وكثر نشر الكتب العلمية واعتمدت الصناعة على العلم فكثرت المكتشفات والمخترعات وتشعبت المذاهب والآراء لان فريقاً من الناس لا يقتصر على الماديات بل يطلب معها الادبيات ولولا ذلك لالقت الماديات على الادبيات ستاراً كثيفاً وضؤل نور العلم واحتجب عن الابصار

وكانت كتب الفيلسوف كُنت قد انتشرت واقبل الناس على مطالعتها ثم ظهر كتاب هويول في تاريخ الفلسفة وكتاب الكون لهمبلت فجعل العقلاء يقرأون هذه الكتب ويتساءلون عن حقيقة هذا الكون وما فيهِ . ولم يكن قد عُرِف شيءٌ مما يعرَف الآن بحفظ القوة وتغيُّر الانواع ونشوء الموجودات الآلية ولا من ماهية الحرارة وكونها ضرباً من الحركة ولا كان الرأي الحويصلي [٢] معروفاً الاَّ في المانيا لكن كان العقلاء يفكّرون في هذه المواضيع كلها ولا يعوزهم الاَّ الكلام الوضعي للتعبير عنها

وكان جمهور الناس يحسب ان الانسان خُلق كما نصَّت التوراة على خلقهِ وكذلك سائر الموجودات وجدت كما جاء عنها في الفصل الاول من سفر التكوين حتى ان كبار العلماء الذين عرفوا من نواميس الكون اكثر مما عرف غيرهم بقوا مستمسكين بهذه العقيدة يجمعون بينها وبين ما كاشفتهم الطبيعة بهِ من اسرارها . ولم يكونوا يرون صلة بين العلوم المختلفة ولا يحسبون انها ناشئة بعضها من بعض بالارتقاء المستمر فلما ظهر من مكتشفات العلوم الطبيعية ان وجود الكون لا يفسَّر على ما في سفر التكوين قال الناس ان العلم والدين خصمان لا يتفقان وعسر على العقلاء تعليل وجودهما معاً ونسبة كلّ منهما الى الآخر فقام الفيلسوف كُنت وبيَّن نسبة العلوم الدينية الى العلوم الطبيعية في ارتقاء الانسان واظهر مزية العلوم الطبيعية لانها تعتمد على الملاحظة والامتحان ثم بيَّن ان العلوم كلها حلقات متصل بعضها ببعض ومبنيٌّ بعضها على بعض لكنهُ اخطأ في انهُ اوجب قصر البحث على المعلولات ولم يلتفت الى العلل حاسباً ان البحث عنها من قبيل العبث ولا اهتمّ بالفروض التي تعلَّل بها الظواهر الطبيعية فاعتبر في حكم المجهول جانباً كبيراً مما يعدُّ الآن في حكم المعلوم . ولو قال بالعلَّة الفاعلة في كل المعلولات وهي القوة التي لا تزول ولا تنقص بل تحوّل المادة من صورة الى اخرى وتحوَّل معها من شكل الى آخر لحلَّ محل سبنسر وسبقهُ الى فلسفتهِ

(٢) يراد بهِ تكون انسجة الحيوان والنبات من حويصلات دقيقة

وجملة القول ان الناس كانوا ينظرون الى الكون قبل مبنسر كأنهُ آلة كبيرة جدًّا صُنع كل جزء منها على حدتهِ وأُحكم صنعهُ لغاية واحدة قائمة في عقل الصانع الاعظم مدبر الكون لا في مادة الآلة نفسها. ولم يحسبوا ان الوحدة موجودة في هذه الآلة ولا حسبوا انهُ يمكن اكتشافها لو كانت موجودة · حتى ان الفيلسوف جون ستورت مل كان يقول ان ما نحسبهُ من الضروريات قد لا يكون ضروريًّا في عالم آخر فالاثنان والاثنان اربعة عندنا ولكن قد لا يكون مجموعها اربعة في عالم آخر · وليس من الضرورة ان ما يوجد الآن يكون موجودًا ولا ما يمنع الخالق من تغيير نظام الكون وقلب كل ما فيهِ رأسًا على عقب وقتما يشاء وان كل ما قيل عن العجائب والمعجزات ممكن اذا قامت الادلة على حدوثهِ(٤)

هذا كان حال العلوم الطبيعية وتصور الناس لها حينما اخذ مبنسر ينظر فيها . اما الفلسفة ويراد بها البحث عن حقيقة الموجودات كما يراد بالعلم الطبيعي البحث عن حالة الموجودات فكانت قد صارت مادية قبيل الثورة الفرنسوية وقال اصحابها انهُ لا يوجد شيء حقيقي الاَّ المادة والقوة. هذا كان مذهب ديدرو واتباعهِ وبهِ فسَّروا كل شيء من حركات الاجرام السموية الى افعال النفس الانسانية . فلما خُتم عصرهم بمذابح الثورة الفرنسوية اقشعرَّت فرائص الناس من مذهبهم ناسبين اليهِ كل ما حدث من الجرائم فطرحوا ما فيهِ من الصواب مع ما فيهِ من الخطإ وحسبوا ان كل مذهب مادي يؤول اخيرًا الى محو الدين والآداب والحكومات · ولا شبهة بوجود الخطإ في مذهب الماديين على ما كانوا عليهِ وفي ان لهُ يدًا في تلك الجرائم لانهُ اعتبر الانسان آلة صدرت من تجمع الدقائق المادية على اسلوب مخصوص . والعقل شعورًا مرتَّبًا من شعور العجماوات · والآداب صورة من طلب المنفعة الذاتية . والديانة نتيجة الهواجس والتخيلات . والحكومة اتفاقًا بين الملوك الطغاة والكهنة الختالين على استعباد الشعب . فلما حدثت الثورة الفرنسوية بفظائعها تقوضت اركان الفلسفة المادية وجعل الناس يفتشون عن فلسفة اخرى او عن مبادئ اولية يبنون احكامهم عليها ويشغلون عقولهم بها ويجعلونها اساسًا ثابتًا للاحكام والنظامات الاجتماعية فوجدوا هذه المبادئ في المانيا في الفلسفة الروحية او الدينية . ولكن لم تكد الفوضى

(٤) وقد قال مكنزرصن ان هكسلي جارى مل في ذلك والراجح في ذهننا ان هكسلي لم يقل ان العجائب تثبت بمجرد قيام الادلة على حدوثها ولو خالفت نواميس الطبيعة بل قال انهُ اذا قامت الادلة القاطعة على حدوثها لا تكون مخالفة لنواميس الطبيعة بل تكون من نتائجها اللازمة عنها فاذا قامت الادلة القاطعة على ان الشمس وقفت ساعتين او على ان الارض وقفت ساعتين لم تدُر فيهما على محورها فيكون ذلك لان حركات الارض والنظام الشمسي كلهُ تقتضي وقوف الارض في الوقت الذي وقفت فيهِ

تزول من فرنسا وتستتب الاحكام فيها تحت سلطة ما يعرف بالاتحاد المقدس حتى ضرب الجور والاستبداد اطنابهما وصارت الاماكن التي كانت ملجأ للثوار سجناً للنفوس ورأى العقلاء ان هذه الفلسفة لا غرض لها الاَّ حفظ النظامات القديمة وتأييد العقائد الشائعة واذا طولبت بدليل لجأت الى ما تعدهُ من البديهيات والاوليات التي لا تحتاج الى دليل فرموها بسهام الانتقاد وزعزعوا اصولها وتجاوزوا الحد في ما نقضوهُ منها حتى ان إمامهم الفيلسوف جون ستورت مل شكَّ في كل شيء وانكر البديهيات وقال ان كل علم متولدٌ من الاختبار وفاتهُ ان الاوليات الهندسية مثلاً يدركها الانسان بالبداهة ويقول بها قبل الاختبار وقبل الامتحان

هذا كان حال العلم وحال الفلسفة حينما ظهر سبنسر واخذ ينظر في الموجودات . وسنبين كيفية نظره فيها في الفصل التالي

قلة المواليد وأسبابها

كتب الدكتور بوشي الاميركي في مجلة العلم العام الاميركية مقالةً موجزة في اسباب قلة المواليد قال فيها ان معدل مواليد الاميركيين الوطنيين وخصوصاً المتخرجين من المدارس العالية آخذ في التناقص في بعض الولايات وانهُ توصل بعد البحث الطويل الى النتائج الآتية وهي

اولاً ان معدَّل الزواج بين الاميركيين الوطنيين اقل منهُ بين الدخلاء وذلك الى سن ٤٥

ثانياً ان نسبة النساء المتزوجات اللواتي لم يلدن هي اكثر في الوطنيات منها في الاجنبيات

ثالثاً ان معدل مواليد الوطنيات اقل من معدل مواليد الاجنبيات اي ان النساء الاجنبيات الاصل يلدن اكثر من النساء الوطنيات الاصل

رابعاً ان من سنة ١٨٨٥ الى ١٨٩٧ كانت نسبة المتزوجات الوطنيات اقل من نسبة المتزوجات الاجنبيات

وعليهِ فمعدَّل مواليد الاميركيين الوطنيين اقل من معدل مواليد الدخلاء وخصوصاً المهاجرين حديثاً

ويظهر من ذلك لاول وهلة ان اميركا تكاد تشبه فرنسا في ان عدد مواليدها آخذ في التناقص والفرق بينهما ان مواليد كل اهالي فرنسا آخذ في التناقص واما في اميركا فالنقص محصور في مواليد الاهالي الذين طال عهدهم فيها

ولقد اتصل الباحثون في موضوع المواليد الى معرفة بعض النواميس الجارية عليها واكثرها